



مركز البيدر للدراسات والتخطيط

Al-Baidar Center For Studies And Planning

الأخلاق البيئية كوحدة قياس لثقافة الشعوب المتحضرة

أ.د. عبد الجليل كاظم الوالي

إصدارات مركز البيدر للدراسات والتخطيط

المقدمة

يُعدُّ مفهوم البيئة واحداً من المفاهيم الأخلاقية التي ناقشها مفكرو اليونان منذ القدم، إذ إنَّ أفلاطون 347-427 ق. م في كتابه القوانين¹، طالب كلَّ من يُحدث تغييراً في البيئة بأنَّ يصلح ما خرَّبه، فمن يلوث الماء، عليه أن يصلح البئر ويعوض الناس أضرارهم.

والدارس لفلسفة أرسطو (322-348 ق.م) يدرك أنه قد قسم المفاهيم الفلسفية حسب موضوعاتها فهناك المفاهيم المنطقية كالجوهر والعرض، والمفاهيم الأخلاقية كالفضيلة والرذيلة، والمفاهيم الطبيعية ومن بينها الطبيعة والكون والفساد والبيئة، وعليه فإنَّ مفهوم البيئة قد ورد ضمن المفاهيم الطبيعية²، ووفقاً لذلك فقد قسم أرسطو طبائع المجتمعات البشرية على ضوء البيئات التي يحيون فيها، إذ ذكر بأنَّ سكان المناطق الباردة يتميزون بالجرأة والشجاعة ولكن تنقصهم الخبرة، بينما سكان سهول آسيا فإنهم أكثر خبرة ومهارة ولكنهم أقلَّ شجاعة، وأمَّا اليونان فهم أمة وسط جمعوا بين مميزات المجموعات الأوروبية والآسيوية.

أما الأخلاق البيئية فهي فرع جديد ومعاصر وله مقولاته الخاصة التي تميزه عن باقي الفروع الاجتماعية الأخرى، وتعد وحدة المصير واحدة من مقولاته الأساسية، إذ تعني بأن كل الموجودات الطبيعية تشكل وحدة وجود واحدة، وعلى الرغم من أنَّ لكل منها قوانينه الخاصة، إلا أنها يتأثر بعضها ببعض الآخر. وخير دليل على ذلك ما يصيب الحيوانات والطيور والنباتات من أمراض فإنها تنتقل إلى الإنسان مباشرة أو إلى الكائنات الأخرى. وعلى الإنسان باعتباره الكائن العاقل في هذا الكون أن يدرك أهمية هذه الموجودات ودورها في الحفاظ على التوازن الطبيعي، ومن هنا تنشأ الأخلاق البيئية.

فضلاً عن ذلك فإنَّ الأخلاق البيئية تؤكد على أنَّ الإنسان في أيِّ مكان وجد من هذا العالم لا بد أن تكون نظرتة بأنَّ العالم الحالي هو عالمي تضامني تحكمه المسؤولية البيئية المشتركة ووحدة المصير.

1.Plato's Laws (2013) Force and Truth in Political, Edited by Gregory Recco and Eric Sanday, Bloomington Ind, Indiana University Press, Electronic book.

2. Aristotle (2001) Physics, translated into English by R.P. Hardie and R. K. Gaye , Blacksburg, VA, Virginia Tech, Electronics book.

وهناك ترجمة عربية قديمة لكتاب الطبيعة، ترجمة إسحق بن حنين مع شروح ابن السمع وابن عدي ومتى بن يونس وأبي الفرج ابن الطيب، تحقيق عبد الرحمن بدوي، جزأين، دار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965.

والأخلاق البيئية هي واحدة من المقومات التي تقاس فيها ثقافات الشعوب ودرجة تمدنهم، فالمدينة ليست فقط أن تحصل على درجة عليا في فرع من فروع المعرفة، بل إنها تعني أيضاً أن تسلك سلوكاً حضارياً راقياً، ومن بين مفردات هذا السلوك الراقي أن تحترم البيئة التي تحيا فيها سواء أكانت هذه البيئة البيت، مكان العمل، المحلة، المدينة، البلد أو البلدان التي تعيش فيها أو تزورها .

ومن أخلاق البيئة ما تتخذه حكومات الدول من قرارات تؤمّن الحماية والحفاظ على البيئة، وكيفية استغلال الموارد الطبيعية، فضلاً عن مساحة وحجم تطبيق هذه القرارات، وهنا تدخل الثقافة كعنصر في تطبيق الأخلاق البيئية، فكلما وجدت شعباً مثقفاً وجدت بيئة نظيفة، فالبيئة النظيفة دليل على رقي ومدن الشعوب.

في ورقتي البحثية هذه ناقشت جملة هذه العوامل فضلاً عن المدارس الفكرية التي فسرت العلاقة بين البيئة والمجتمع كالمدرسة الحتمية والمدرسة التوافقية أو الاجتماعية والمدرسة التفاعلية لأصل من خلالها إلى تحديد استنتاجات تتعلق بدور وأهمية الأخلاق البيئية في تغيير مناحي حياة المجتمعات المتقدمة.

البيئة كمفهوم معرفي:

لفظة البيئة تعود في الأصل إلى الإيكولوجيا في لغة اليونان بمعنى مكان العيش والإيكولوجيا Ecology تعني علم إدارة شؤون البيئة، أي العلم الذي يدرس القوانين الطبيعية التي تنظم الوجود والتي تحدد العلاقات بين الكائنات الحيّة والمحيط الطبيعي المناسب لعيشها بأفضل الشروط. وأطلق فردريك هيجل 1869 م هذه التسمية ليشير إلى العلاقات المتبادلة بين الأحياء كالنباتات والحيوانات التي تعيش معاً في بيئة طبيعية معينة.³ والبيئة كما جاء في إعلان مؤتمر ستوكهولم للبيئة البشرية عام 1972، هي كل شيء يحيط بالإنسان.

أما علم البيئة فيتناول تطبيقات معلوماتية في مجالات معرفية مختلفة في دراسة السيطرة على البيئة، أي إنه العلم الذي يهتم بوقاية المجتمعات من التأثيرات الضارة، ويعني الحفاظ على البيئة محلياً وعالمياً من الأنشطة البشرية ذات التأثير الضار وبتحسين نوعية البيئة لتناسب حياة

3. معلوف، حبيب، على الحافة، مدخل إلى الفلسفة البيئية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2002، ص 98

الإنسان⁴.

ويرتبط مفهوم البيئة من الناحية المعرفية بالشعور والوجدان، عليه فهو يركز على تنمية الشعور الجمالي والذي تفتقده أغلب مناهج التربية في بلدان العالم الثالث في الوقت الحاضر، إذ إنّ أغلب المناهج في بلدان العالم الثالث تركز على تنمية قدرات الإنسان في الحفظ والتلقين أكثر من تذوق الجمال.

لذا فلم يعد هناك فضاءً في خططنا الدراسية يهتم بتربية تلاميذنا على تذوق الجمال، وأصبح تذوق قصيدة شعر أو معزوفة موسيقية، أو زيارة متحف أو معرض فني، ما هي إلا مسائل شخصية وذاتية ولا تدخل ضمن الخطط والبرامج الدراسية لجامعاتنا ومؤسساتنا التربوية.

في الوقت الذي تفرض فيه دراسة البيئة التركيز على التربية الوجدانية، وإنّ هذه التربية مرتبطة بالتربية الفكرية، وإنّ ضحالة التفكير تؤدي إلى جفاف العاطفة، وقيم الفيلسوف الألماني هارتمان الإنسان المعاصر «بأنه أصبح كائناً متلبداً لا شيء يدهشه، ولا شيء يحرك شغاف قلبه، ولا شيء يستثير حياته الباطنية»⁵ وسبب ذلك يعود إلى اهتمام الإنسان المعاصر بالمادة أكثر من الفكر.

يقول كاسيرر «إذا كان من شأن العلم أن يخلع على أفكارنا ضرباً من النظام، كما أنّ من شأن الأخلاق أنّ تضي على أفعالنا ضرباً من التنظيم، فإنّ من شأن الفن أيضاً أنّ يخلع ضرباً من النظام على إدراكنا المظاهر المرئية والملموسة والمسموعة»⁶ لذا فلا بد أنّ يسهم العلم والأخلاق والجمال في إضفاء النظام على مجتمعاتنا المعاصرة.

وفي خضم هذا العالم المعاصر المنهمك بالمادة تظهر بين الحين والآخر اتجاهات فنية جمالية مبدعة، ومن بينها الفن الانطباعي الذي يدرس ألوان الأشياء، ويعدّ ألوان الموجودات المادية متغيرةً متبدلةً نتيجة لتأثير البيئة عليها.

4. لمزيد من التفاصيل انظر: رشوان، حسين عبد الحميد، البيئة والمجتمع، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2006، ص 14-7.

5. أبو زهرة، البيئة وفلسفة الجمال، الإسكندرية، مكتبة الإسكندرية، 2006، ص 12.

6. المصدر السابق ص 57.

تلبُّدُ الجو بالغيوم وتباينُ عدد ساعات ظهور الشمس، وتفاوتُ نسبة الأمطار الساقطة على مناطق العالم هذه جميعاً تؤثر في ألوان الأشياء. فعلى سبيل المثال، كلما كانت كمية الأمطار غزيرة والشمس غير مؤثرة كانت ألوان الأشياء مناسبة لهذا الطقس ومغايرة تماماً لألوان الأشياء في المناطق ذات الأمطار الشحيحة مع شمس ساطعة لساعات طويلة من النهار، أو حتى في المنطقة الواحدة بعينها فإنَّ كان الجو صحواً لأيام معدودة من أشهر السنة وملبداً بالغيوم في الأيام المتبقية فهو الآخر يؤثر على ألوان الأشياء.

لذا فإنَّ هؤلاء الفنانين الانطباعيين اكتشفوا سر تغير وتبدل ألوان الأشياء في كونه يعود إلى تأثير البيئة المباشر على أشياء العالم الخارجي، ورسوموا لوحاتهم بألوان تتناسب مع طبيعة اللوحة وليس مع أشياء العالم الخارجي، لأنَّ ألوان العالم الخارجي متغيرة .

فإنَّ كان هذا الاكتشاف الفني منطقياً وصحيحاً، فلا شيء يمنع من أن نوسِّع دراساتنا ونهتم ببيئتنا ذات التأثير المباشر على جملة أشياءنا بما فيها ألواننا وأشكالنا بل وحتى لغتنا ؛ إذ إنَّ للبيئة تأثيراً فعالاً ومباشراً على اللغة، ويعود سبب اختلاف اللغات واللهجات بين الناس إلى اقتصار اتصالهم مع أبناء مجتمعهم ضمن حدود جغرافيتهم دون توسع اتصالهم بالمجتمعات الأخرى، عليه فإنَّ البيئة تلعب دوراً كبيراً في تكوين اللهجة أو اللغة من خلال البعد الاجتماعي، وكلما تخطى المجتمع دائرة اتصاله الضيقة والمحلية استطاع أن يبلور لغة ذات مفاهيمٍ عملية مقبولة في المجتمعات الأخرى، وهنا تلعب البيئة دوراً فاعلاً في تكوين اللغة العالمية عبر التوسع في الاتصال بين المجتمعات المتباعدة جغرافياً.

العلاقة بين البيئة والمجتمع

لقد فسر الفلاسفة والمفكرون طبيعة العلاقة بين البيئة والمجتمع من خلال الكيفية التي تنعكس فيها الظروف البيئية على الحياة الإنسانية سواء من الناحية البيولوجية أي شكل او قوام أجسام البشر أو من ناحية تأثيرها على سلوك الإنسان وتغير مزاجه أو طباعه .

فمثلا هيوقراط 420ق.م درس العلاقة بين بنية الجسم والبيئة، ولاحظ أنَّ سكان الجبال ذوو قامات طويلة وبنى قوية ويتسمون بالشجاعة، وعكسهم تماماً سكان السهول الجافة وشبه

الجافة، فإنهم قصار القامة وأكثر خبرة ومهارة ولكنهم أقل شجاعة وقد تبنى أرسطو هذه الفكرة، إذ بينت رأي أرسطو في مقدمة البحث.

وقد هاجم فرنسيس بيكون 1600 م في العصر الحديث مثالية اليونان، وكان يرى أنه على الإنسان استخدام معرفته للسيطرة على الطبيعة وتسخيرها لخدمته ومنفعته، ومن هذا المنطلق ظهرت فكرة السيطرة على الطبيعة.

وقد تعددت المدارس الفكرية التي فسرت العلاقة بين المجتمع والبيئة ويمكن أن نقسمها على الأقسام التالية:

1. **المدرسة الحتمية Determinism** تمنح هذه المدرسة أهمية للبيئة أكثر من الإنسان وتعدُّ الإنسان مسيراً لا مخيئاً، لذا على الإنسان أن يتكيف مع البيئة، ومن رواد هذه المدرسة هيوبوقراط وأرسطو إذ ربطا بين المناخ وطبائع الشعوب.

2. **المدرسة الإمكانية Possibility** تؤمن هذه المدرسة بأن الإنسان هو قوة مؤثرة بالبيئة التي يحيا فيها فهو ليس سلبياً بل فاعل، وهو في نفس الوقت ليس مسيراً بل مخيئ، ويعتقد مفكرو هذه المدرسة أن البيئة تعطي الإنسان خيارات وهو الذي يختار ما يراه مناسباً منها.

3. **المدرسة التوافقية أو الاحتمالية Probability** وهذه تجمع بين آراء تلكما المدرستين، فهي تؤمن بأنه في بعض البيئات يتعاظم دور الإنسان، بينما في بيئات أخرى يقل دوره، لذا فهي مدرسة واقعية تصور واقع حال الإنسان، ويمثل هذه المدرسة آرنولد توينبي وقد حدد أربع استجابات للعلاقة بين الإنسان والبيئة هي :

استجابة سلبية، هنا لا يستطيع الإنسان أن يطوع بيئته وهو عاجز أمامها، لذا فإنه يعمل بحرفتي الجمع والصيد.

استجابة تأقلم، لدى الإنسان بعض المعرفة التي حاول استغلالها ليتأقلم مع البيئة، لذا عمل بالرعي وتربية الحيوان والزراعة البدائية.

استجابة إيجابية، يحاول الإنسان هنا أن يتغلب على صعوبات البيئة لأنها لا تلبى احتياجاته، لذا عمل في الزراعة غير البدائية والرعي المتطور والصيد المتطور .

استجابة إبداعية، لا يكتفي الإنسان هنا فقط بالتأقلم بل يبتكر ويبدع، ويتمثل ذلك في حرفة الصناعة، فهي إبداع وابتكار بشري.

4. مدرسة التفاعل **Interaction** يرى أصحاب هذه المدرسة بأنَّ هناك تأثيراً متبادلاً بين البيئة وبين مكوناتها، فالكائن الحي يتأثر بكل ما يحيط به من عوامل البيئة من حرارة وطاقة، كذلك البيئة هي الأخرى تتأثر بالإنسان من خلال أنشطته المختلفة، وتعد هذه النظرية صلة بين البيئة والصحة، وتدرس عدداً من المتغيرات كالتعليم والثقافة والممارسات اليومية والعادات السلوكية وكيفية حدوث التأثير والتأثر بين الإنسان والبيئة من خلال هذه المتغيرات.⁷

الأخلاق البيئية

إنَّ هدف الأخلاق البيئية هو السمو بالعلاقة بين الإنسان والبيئة إلى أعلى غاياتها بحيث تتحقق قدسية الحياة التي تعني في نفس الوقت قدسية البيئة.

الأخلاق البيئية تعيد النظر في المقولة التي اعتدنا تردها وهي أنَّ الإنسان هو السيد والسلطان الذي يتمتع بكل الصلاحيات لاستغلال الموجودات الأخرى. ويصبح الإنسان وفقاً للأخلاق البيئية مكوناً مهماً من مكونات الطبيعة لكنه ليس سيد الكون.

وعلى الإنسان ألا يتخلى عن إنسانيته، بل عليه أن يتشبث دائماً بكونه إنساناً عالمياً مثلما كان يعتقد الكثير من المفكرين على أنهم مواطنون عالميون كأبيقور مثلاً الذي رفض أن تُمنح له الجنسية أو المواطنة الأثينية، وقال بأنه مواطن عالمي . لذا فنظرة الحركة البيئية الآن هي أنَّ هذا الإنسان في أيِّ مكان وجد من هذا العالم لابد أن تكون نظرتُه بأنَّ العالم الحالي هو عالمي تضامني تحكمه المسؤولية البيئية المشتركة ووحدة المصير.

ووفقاً لهذا السلوك الحضاري تُقيَّم أخلاق المرء البيئية، مثلما تُقيَّم في استدامة الموارد البيئية، وكون هذه الموارد ليست حكرًا على فئة معينة من الناس، ولا حكرًا على جيل بعينه، بل هي ملك لجميع الأجيال، فمثلما أخذ الجيل السابق نصيبه منها والجيل الحالي يتمتع بهذه الموارد البيئية فكذا الحال يكون للجيل اللاحق نصيبٌ من هذه الموارد، وعليه فإن سلوك الأفراد والحكومات في

7. لمزيد من التفاصيل انظر، رشوان، حسين، البيئة والمجتمع، المكتبة الجامعية، الإسكندرية، 2006، ص 87-94.

مثل هذا النوع من التصرف يُقيّم ضمن أخلاق البيئة.

ولا نتناسى أيضاً حجم المؤسسات الحكومية وغير الحكومية، نوعيتها، برامج عملها، مدى تأثيرها على المجتمع، مقدار إنجازاتها، هذه المؤسسات هي الأخرى أحد المقاييس التي تقاس بها الأخلاق البيئية لدولة ما أو مجتمع ما؛ لكن ما هي هذه الموارد البيئية التي لا بد من مراعاتها عند التحدث عن الأخلاق البيئية؟

تصنف الموارد البيئية على صنفين، الموارد غير القابلة للنفاد والموارد التي من الممكن أن تنفذ.

الموارد غير القابلة للنفاد تقسم على:

موارد أبدية، الطاقة الشمسية، الرياح، الأمطار، طاقة المد والجزر.

موارد يمكن أن تنقص إذا لم تستعمل برشد، الهواء، مياه المحيطات والبحيرات والأنهار، طاقة التيارات المائية، الريف والأرض بالمفهوم الواسع.

الموارد التي يمكن أن تستنفد تقسم على:

الموارد التي يمكن الحفاظ عليها: موارد قابلة للتجديد كالماء والتربة ومنتجات الأرض (المنتجات الزراعية، الغابات، أراضي الحشائش، الحيوانات البرية)

منتجات غير قابلة للتجديد أو التعويض، فصائل الحيوانات البرية، الطبيعة البكر.

موارد لا يمكن الحفاظ عليها تقسم على :

موارد قابلة للاستعمال ثانية، الأحجار الكريمة، المعادن

الموارد التي لا يمكن إعادة استعمالها، موارد الوقود، معظم الأملاح اللامعدنية، الاستغلال الكلي للمعادن يستنفد الاحتياطي.⁸

8. طاحون، زكريا، أخلاقيات البيئة وحماقات الحروب، القاهرة، جمعية المكتب العربي للبحوث والبيئة، الطبعة الأولى، 2002، ص

الإعلام والمؤسسات الثقافية هي الأخرى تلعب دوراً أساسياً في بناء الأخلاق البيئية فالتوعية عبر وسائل الإعلام أو بواسطة البرامج الثقافية أو في المؤسسات التعليمية تبلور وعياً في أخلاق البيئة، وفي أوروبا لديهم دليل للشركات التي تنتج معدات لمكافحة التلوث.⁹

المشكلات البيئية المعاصرة

التغيرات في الغلاف الجوي، تلوث الهواء، الأمطار الحمضية، التأثير على طبقة الأوزون، احتمالات تغير المناخ.

مصادر المياه العذبة ونوعيتها، الآثار الصحية لتلوث المياه، تلوث البيئة البحرية، تدهور التربة، التنوع البيولوجي، الأنشطة الإنمائية وأثرها في البيئة، الزراعة وإنتاج الغذاء، الصناعة، إنتاج الطاقة واستخدامها، النقل والسياحة .

العلاقات المتشابكة، البيئة والتنمية، السكان والمستوطنات البشرية، التطورات العلمية والتكنولوجية .

أنواع التلوث، تلوث التربة، التصحر، التلوث المائي، التلوث الهوائي/الجوي، التلوث الضوضائي، مشكلة الطاقة، التلوث الإشعاعي، تآكل طبقة الأوزون.

وقد اختلفت وجهات نظر المفكرين للمشكلات البيئية، وكلٌّ نَظَرَ لها من زاويته الخاصة، فمثلاً يعتقد بعض من العلماء على أنَّ الانفجار السكاني واحدٌ من الكوارث البيئية التي يتعرض لها العالم المعاصر، ويتوقع العلماء أنَّ العالم سيتعرض لمجاعات يموت بسببها الملايين من البشر، وأنَّ المشكلة الرئيسة التي يسببها الانفجار السكاني تكمن في نقص الغذاء، وقد اعتمد هؤلاء على وجهة نظر مalthوس والمفكرين الاقتصاديين الكلاسيكيين الذين كانوا يعتقدون بمحدودية الإنتاج الغذائي للأرض مقارنة بالتطور السكاني المتسارع، فالغذاء يتزايد بمتوالية عددية بينما عدد السكان يتزايد بمتوالية هندسية.

9.Directory of Pollution Control Equipment Companies in Western Europe(1990),Association of British Directory Publishers, London

واستمر هذا الاتجاه في الوقت الحاضر، وقد رأى أصحابه بأن محدودية المصادر لا تقتصر على إنتاج الأرض الزراعية للغذاء فقط بل إنَّ محدودية المصادر تشمل أيضاً الوقود الأحفوري بما فيه النفط والفحم والغاز الطبيعي ومحدودية النظام العالمي لدعم الحياة الإنسانية.¹⁰ وتنعكس مشكلة الانفجار السكاني على مكونات البيئة الطبيعية ليحدث، أزمة في الطاقة وزحاماً في المستوطنات البشرية، وتلوثاً في الماء والهواء والتربة، ونقصاً في الثروات المعدنية و الماء العذب والموارد المتجددة من غابات ومراعٍ وأحياء برية ومائية ومشكلات سياسية واجتماعية.

وما لم يبادر الإنسان إلى معالجة هذه المشكلة السكانية، فإنَّ البيئة قد تعالجها بطريقة تؤذي الإنسان، كالأوبئة والأمراض والتلوث وغيرها ممَّا تسببه الزيادة السكانية.

على النقيض من هذا الاتجاه، يرى بعض المفكرين أنَّ الزيادة السكانية لم تؤذِ البيئة بل هي نافعة ومن مصلحة العالم أن يزداد السكان، وأنَّ ما يقال عن قطع الغابات مثلاً نتيجة للزيادة السكانية هو محض افتراء، فمازالت الغابات تغطي ثلث مساحة الأرض، وليست هناك إحصاءات دقيقة عن ازدياد حرارة الأرض أو انقراض الأنواع الحية أو تأثير طبقة الأوزون، لكن هذا لا يعني عدم وجود ازدحام في بعض المناطق المكتظة بالسكان، الازدحام موجود في أماكن محددة من العالم لكنه لم يكن مشكلة عالمية .

ثم إن الاكتظاظ بالسكان لم يكن سببه نقصٌ في المساحات الفارغة من الأرض بل إن الناس تريد العيش مع بعضها الآخر لتبيع وتشترى وتعطي أو تأخذ الخدمات التي تحتاجها من الآخرين، وإن اتساع رقعة المدن يجعل الناس يشعرون باختلال التوازن بين سكان الريف والمدينة ويخشون أن ينفد غذاؤهم لأن أعداد المزارعين لا تكفي لتلبية حاجة هذا الكم من البشر الذي يعيش في المدينة، ويتناسى هؤلاء استخدام احدث التقنيات من قبل المزارعين الذي يستطيعون توفير الغذاء للناس. ويعتقد أصحاب هذا الاتجاه بأن البيئة قادرة على تلبية احتياجاتهم بغض النظر عن عدد السكان في العالم المعاصر.¹¹

10. Marowski, G Dael, Editor(1992) Environmental Viewpoints, Selected Essays and Excerpts on Issues in Environmental Protection , Lazzari Marie and others, Gale Research, US, P307.

11. Ibid p 327-328

لذا نجد بعض الباحثين في البيئة عندما يلخصون المشكلات البيئية المعاصرة وفقاً لتقييم البيئة، فإنهم لم يذكروا الانفجار السكاني كمشكلة بيئية معاصرة، بل إنهم يحددونها على النحو التالي : ظاهرة الاحتباس الحراري، الأمطار الحمضية، التصحر، انقراض الأنواع، التنوع البيولوجي، المصادر الثقافية، مخاطر البيئة الطبيعية.¹²

المسؤولية الأخلاقية تجاه المشكلات البيئية المعاصرة

يمكن النظر إلى المسؤولية الأخلاقية للمشكلات البيئية المعاصرة وفقاً لتقسيم المشكلات البيئية على قسمين أساسيين هما :

1- العوامل الطبيعية كالفيضانات والتصحر والجفاف والكوارث الطبيعية المتمثلة بالزلازل والهزات الأرضية والبراكين والرياح جميعها تلقي مسؤولياتٍ معينةً على المجتمع، وينتج من هذه المسؤولية الأخلاق البيئية.

2- الأنشطة الإنسانية المتمثلة في قطع الأشجار وتقليص كمية الغابات، انقراض الأنواع البيولوجية، الحروب بكافة أشكالها وأسلحتها الكيميائية والنووية، عدم مراعاة قواعد البيئة عند إنشاء المصانع، كل هذه الأنشطة وغيرها من عمل الإنسان وهو المسؤول عنها أخلاقياً .

ويُعدُّ السلوك غير الأخلاقي الصادر من أبناء الجنس البشري من أشد أشكال التلوث الذي يؤدي البيئة ويدمرها، وأغلب أنواع هذا التلوث لا يشعر به الكثيرون لكنه مؤذٍ وضارٌّ للبيئة، ومن أمثلة هذا التلوث، تدني الأذواق، اللامبالاة، عدم الانتماء، فساد الذمم.

ولا يشعر الناس بهذا الخلل الذي تسببه هذه السلوكيات اللاأخلاقية إلا بعد أن تحدث الكوارث والمآسي، وينبه الكتاب والمفكرون لهذه الأخطار بين الحين والآخر، ومن بين ما نشرته صحيفة الإندييندنت مقالة للكاتب Lloyd Timberlake بعنوان التهديد الخطير للأرض، يرى الكاتب فيها أنَّ الكارثة البيئية سوف تحل محل الحرب النووية والتي ستكون الخطر الأكبر الذي

12. لمزيد من التفاصيل انظر :

Jain. R.K and others (2001) Environmental Assessment, McGraw-Hill, United States, P327-406

يواجهه العالم في القرن الحادي والعشرين .¹³

ومن بين أشهر الحجج الأخلاقية التي تستخدم للدفاع عن البيئة وبالأخص تلك المتعلقة بتدمير الغابات المطرية هي، أنه ربما واحدة من أشجار هذه الغابات أو الحيوانات البرية التي تعيش فيها تحمل علاجاً للأمراض المستعصية التي يعاني منها الناس كالسرطان والأيدز، فلماذا نقطعها أو ندمرها فلنتركها للزمن وربما اكتشف العلماء علاج هذه الأمراض في هذه الغابات المطرية. وسيكون الهدف الأخلاقي من هذه الحجة هو إنقاذ المرضى.

أما الحجة الأخرى فإنها قائمة على نظرية التوازن الطبيعي والتي مفادها أن هناك حرباً معلنة الآن ضد أي أنشطة تدمر الغلاف الجوي وبالأخص طبقة الأوزون، هذه الحرب سببها أن الإنسانية تهدف إلى تحقيق الرفاهية الاجتماعية، لكن هذه الرفاهية الاجتماعية مهددة نتيجة ازدياد الانبعاث الحراري الذي تسببه الأنشطة الإنسانية والتي تصنف أخلاق الحفاظ على البيئة في المرتبة الثانية بعد انجاز حاجات الناس. فالحجة الأخلاقية هنا تقوم على أن الحفاظ على البيئة ينطلق من كونها البيئة الحياتية لكل الكائنات دون استثناء.¹⁴

ويمكن القول إن مسألة التوازن الطبيعي تعني أيضاً أن لكل كائن موقعاً ودوراً في البيئة التي يعيش فيها وأن القضاء على أي من الكائنات الحية يعني اختلالاً في التوازن الطبيعي.

وتعدُّ المعالجة الدينية من أفضل المعالجات للتلوث الأخلاقي، ففي الإسلام العديد من الأمثلة التي ترشد الناس إلى تجنب التلوث الأخلاقي، إذ إن كل أشكال الواجبات الدينية كالصوم والصلاة والحج لا تعني فقط الممارسات الظاهرية البدنية لمثل هذه العبادات بل هي في حقيقة أمرها تعني تهذيب النفس الإنسانية وتخليصها من الشوائب التي تلحق بها من جراء الانغماس بالحياة المادية ومن بين هذه الشوائب تلوث المكان الذي نحيا فيه، فلا بد أن نعتني به ونحترمه ونحافظ عليه، هذا يعني أن الحفاظ على البيئة هو جزء من العبادة .

13. Johnson. R.J (1991) Environmental Problems, Nature, Economy and State, Belhaven Press, London, P1

14. Burke,G and others (2005) Handbook of Environmental Management and Technology, Wiley Interscience Publication, Canada, p753-756

وهناك العديد من الآيات والأحاديث النبوية التي تؤكد على ما نقول منها قوله تعالى «كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين»¹⁵ وكذلك حرم الله قطع الأشجار في موسم الحج، وفي حديث للرسول الكريم محمد (ص) «إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها»¹⁶. هذه النصوص تعني استدامة العمل والحفاظ على البيئة. وكذلك من الأحاديث التي تدعو إلى إحياء المحيط الحيوي وتنميته «ما من مسلم يغرس غرساً ويزرع زرعاً فيأكل منه طير أو بهيمة أو إنسان إلا كان له به صدقة».

فضلاً عن ذلك فإن هناك ارتباطاً حقيقياً بين الإنسان والأرض ويتمثل هذا الارتباط بأن الإنسان خلق من طين، «ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين»¹⁷ فمنها خلق وإليها يعود ومنها يبعث ثانية، وقد ورد ذكر الأرض في القرآن الكريم 461 مرة¹⁸، يعني هذا عظم وأهمية الأرض بالنسبة للإنسان والكائنات الأخرى.

أما الماء فهو يمثل العنصر الآخر من بين العناصر المهمة في الطبيعة، وهو هبة من الله لكل الكائنات الحية وغير الحية «أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون»¹⁹، وقد تكرر ذكر الماء في القرآن الكريم 63 مرة دلالة على أهمية الماء في الحياة، إذ إن الأرض تبدو ميتة بدون الماء ولكن سرعان ما تبعث فيها الحياة بعد تغذيتها بالماء وتصبح صالحة لتغذية الكائنات الحية «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرةً إن الله لطيفٌ خبير»²⁰.

الهبة الإلهية الأخرى هي الهواء، والذي هو العنصر الحر لكل الكائنات الحية التي لا يمكن أن تعيش بدونه، ولم تقتصر فائدة الهواء على التنفس فقط بل يسخره الله رحمة للناس لنقل الغيوم من مكان إلى آخر للمساعدة على إرواء الزرع وإحياء الأرض الميتة «وهو الذي يرسل الرياح بشراً

15. القرآن الكريم سورة البقرة، الآية 60

16. البخاري، الأدب المفرد

17. القرآن الكريم، سورة المؤمنون، الآية 12.

18. Othman, Abdul Hamid and Dol, Abdul Rahman (1993) Islamic Principle on Environment and Development, Proceeding of the Conference on Environment and Development in the Islamic World held in Kuala Lumpur, First published by The Islamic Academy of Sciences, Amman , Jordan, p 40

19. القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآية 30.

20. القرآن الكريم، سورة الحج، الآية 63.

بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون»²¹ ولا يستطيع أحد أن يتناسى أهمية الهواء للحياة أو للوظائف الاجتماعية، وإن كان هو هكذا، فلا يحق لنا أن نلوثه ذلك أن جزءاً من واجبنا الديني والأخلاقي هو أن نحافظ عليه نقياً صافياً بعيداً عن التلوث.

القيم البيئية العالمية

عالم اليوم عالمٌ معقدٌ ومتشابكُ الصلات والروابط، وقد وُصف هذا العالم بأوصاف متعددة فمرة يسمونه بالقرية العالمية الواحدة والتي هي نتيجة لإفرازات العولمة، ومرة أخرى يسمونه عالم التكنولوجيا أو عالم الفضاء أو عالم الإنترنت، وما إلى ذلك من مسميات أفرزتها العلاقات الاجتماعية المعاصرة .

وقد أفرز هذا التشابك قيماً عالمية مشتركة بين أبناء البشر، من بينها العدل والحرية والمساواة والاحترام والرعاية والأمانة والتعاون الدولي، والحاجة إلى طرائق عالمية متكاملة لمواجهة مشكلات البيئة.

هذه القيم هي التي تحول عالمنا المعاصر إلى عالم أخلاقي يرتبط فيه الناس بما هو أكثر من روابط الجوار أو المصلحة أو الهوية، وجميع هذه القيم ترتبط بالتعاليم الدينية السماوية في جميع أنحاء العالم والتي تقضي بأن يتعامل الناس مع بعضهم على النحو الذي يرغبون في أن يتعاملوا به .

وقد تجسدت هذه القيم في ميثاق الأمم المتحدة الذي يدعو إلى الاعتراف بالكرامة المتأصلة لكافة أعضاء الأسرة الإنسانية وحقوقهم المتساوية غير المنقوصة في الأمن والأمان البيئي.

وعلى صعيد البيئة يدعو أغلب المفكرين العالميين إلى ضرورة تدخل السياسة البيئية في كل مجالات التنمية سواء الثقافية أو الاقتصادية أو التربوية أو في المجالات الأخرى التي تلعب دوراً مهماً في تغيير المجتمع الإنساني .

فتدخل السياسة البيئية مثلاً في الثقافة يعني أننا لابد أن نقبل الآخر، أما في الاقتصاد فيعني تنظيم الموارد الطبيعية واستغلالها بالشكل الأمثل، ولابد أيضاً أن تكون السياسة البيئية فاعلة

21. القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية 57.

في سياسة التصنيع وضبط هذا القطاع الحيوي والتخفيف من إنتاج النفايات السامة التي تدمر الإنسان والبيئة، أمّا تدخل السياسة البيئية في القطاعات الإنسانية الأخرى فلا بد أن يُبنى على التقدم الذي وصلت إليه الإنسانية خاصة في المجال التربوي لأنه يمثل ثقافة الشعوب الإنسانية برمتها.²²

الاستنتاجات

1. يمكن القول إنَّ الأخلاق البيئية مازالت تحبو في العالم الثالث لكنها واضحة المعالم في الدول المتقدمة ولها أهدافها ومؤسساتها وتوجهاتها.

2. لكي تكون بيئياً عليك أن تؤمن بمبادئ أخلاقية عن الكون والوجود، وعن دور الإنسان ككائن من بين الكائنات الطبيعية الأخرى، وعن طبيعة السلوك الذي تسلكه تجاه البيئة .

3. تكمن الأسباب الرئيسة في مشكلات البيئة في نقص المعرفة عن البيئة، والاستغلال غير الرشيد للتكنولوجيا في البيئة، واختلال القيم، واختلال البيئة الاجتماعية.

4. أعتقد أنَّ المكون الأول للأخلاق البيئية لابد أن ينطلق من مقولة وحدة الوجود والمصير، وتصبح عملية الدفاع عن الحياة كقيمة عليا من أهم أهداف فلسفة البيئة ؛ إذ إنَّ ما يحدث من حوادث على صعيد الواقع يثبت وحدة الوجود بين كل عناصر البيئة، الإنسان والحيوان والنبات والجماد. ويصبح مفهوم التوازن والانسجام مع الطبيعة مفهوماً مقبولاً أخلاقياً أكثر من مفهوم السيطرة على الطبيعة أو الإنسان في مواجهة الطبيعة .

5. تشجع الأخلاق البيئية تطور وتقدم التكنولوجيا لكنها ترفض أن تصبح التكنولوجيا أداةً للسيطرة والاستغلال.

6. تنادي الأخلاق البيئية بأن يكون الإنسان أكثرَ حكمةً وتواضعاً وعلى الإنسان أن يسعى لحب الحكمة وليس امتلاكها لكي يجعلها كالقوة بين يديه ليستغل الآخرين عبرها.

7. الأخلاق البيئية لا تلغي التقدم الذي حصل على مستوى الإنسانية بل إنها تنظر إلى مفهوم التقدم ضمن محدودية الموارد الطبيعية نظرة جديدة تأخذ بنظر الاعتبار الكيفية التي من الممكن

22. يمكن الاستفادة من بعض المعلومات التي يقدمها، معلوف حبيب، على الحافة، مدخل إلى الفلسفة البيئية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2002، ص 99-101

الحفاظ بها على استمرارية وديمومة هذه الموارد البيئية.

8. الأخلاق البيئية تؤكد النزعة الإنسانية التي تأخذ بنظر الاعتبار حقوق الأجيال القادمة في الموارد الطبيعية .

9. مشكلات البيئة نشأت بفعل سوء تفاعل الإنسان مع الطبيعة عبر مختلف أنشطته النظرية والعملية، فضلاً عن المشكلات التي تنشأ بفعل الطبيعة كالفيضانات والبراكين والزلازل والعواصف.

10. لابد من التذكير دائماً باليوم العربي للبيئة الذي يصادف 14 أكتوبر من كل عام وكذلك يوم البيئة العالمي المصادف 5 حزيران من كل عام. واستغلال هذه المناسبات لمراجعة أنفسنا ومعرفة ما نحن عليه، فمراجعة الذات هي من أفضل اللحظات التي يمر بها الإنسان، وتعني إجراء تقييم لأنفسنا وأعمالنا.

11. لابد من إدخال البعد البيئي لمناهجنا التعليمية وجعل المعرفة البيئية جزءاً من النظم التعليمية وعلى مختلف المستويات. ومن أبسط الأمثلة على فائدة المعرفة البيئية، كون الطلبة في اليابان هم الذين ينظفون صفوفهم، فماذا تتوقع من تلميذ ينظف مكان تعليمه ؟ هل هذا التلميذ يؤذي البيئة ؟ وفي نفس الوقت المهندس الذي يمتلك معرفة بيئية يأخذ بنظر الاعتبار آثار المشروع الذي يصممه على البيئة مستقبلاً، أي انه لا يؤذي البيئة في تصاميمه.

12. هناك صراع بين البيئة والاقتصاد ويمكن تشبيه هذا الصراع على النحو التالي :

Ecology's uneconomic

But with another kind of logic.

Economy's unecologic.

بمعنى أنّ علم البيئة ليس اقتصادياً، كما أنّ علم الاقتصاد ليس بيئياً. ويمكن أن نضع أيضاً الغرض من التطوير الاقتصادي وفقاً للمقولة التالية:

Effort to improve the income of the man

Effort to improve his living conditions

لكن للأسف الشديد تحاول الحكومات جاهدة تطوير دخل الفرد دون أن تطور شروط معيشته، وشروط معيشته هي البيئة التي يحيا فيها الإنسان.²³

23. Sapru. R.K (2001) Environment Management in India ,Punjabi Bagh, p.8

هوية البحث

اسم الباحث: أ.د. عبد الجليل كاظم الوالي - أستاذ الفلسفة في قسم الفلسفة في جامعة الإمارات العربية المتحدة. يعمل البروفيسور الوالي في مجالات الفلسفة اليونانية والنظريات الأخلاقية المعيارية والوصفية والفلسفة بين الثقافات والفلسفة الإسلامية.

عنوان البحث: الأخلاق البيئية كوحدة قياس لثقافة الشعوب المتحضرة

تاريخ النشر: كانون الثاني 2023

رابط البحث: <https://orcid.org/0000-0003-0119-302X>

ملاحظة:

الآراء الواردة في هذا البحث لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المركز، إنما تعبر فقط عن وجهة نظر كاتبها

عن المركز

مركز البيدر للدراسات والتخطيط منظمة عراقية غير حكومية، وغير ربحية، تأسس سنة 2015م، ومُسجل لدى دائرة المنظمات غير الحكومية في الأمانة العامة لمجلس الوزراء.

يحرص المركز للمساهمة في بناء الانسان، باعتباره ثروة هذا الوطن، عن طريق تنظيم برامج لإعداد وتطوير الشباب الواعد، وعقد دورات لصناعة قيادات قادرة على طرح وتبني وتطبيق رؤى وخطط مستقبلية، تنهض بالفرد والمجتمع وتحافظ على هوية المجتمع العراقي المتميزة ومنظومته القيمية، القائمة على الالتزام بمكارم الاخلاق، والتحلي بالصفات الحميدة، ونبذ الفساد بأنواعه كافة، إدارية ومالية وفكرية وأخلاقية وغيرها.

ويسعى المركز أيضاً للمساهمة في بناء الدولة، عن طريق طرح الرؤى والحلول العملية للمشاكل والتحديات الرئيسية التي تواجهها الدولة، وتطوير آليات إدارة القطاع العام، ورسم السياسات العامة ووضع الخطط الاستراتيجية، وذلك عن طريق الدراسات الرصينة المستندة على البيانات والمعلومات الموثقة، وعن طريق اللقاءات الدورية مع الجهات المعنية في الدولة والمنظمات الدولية ذات العلاقة. ويسعى المركز لدعم الإصلاحات الاقتصادية والتنمية المستدامة وتقديم المساعدة الفنية للقطاعين العام والخاص، كما يسعى المركز لدعم وتطوير القطاع الخاص، والنهوض به لتوفير فرص عمل للمواطنين عن طريق التدريب والتأهيل لعدد من الشباب، بما يقلل من اعتمادهم على المؤسسة الحكومية، ويساهم في دعم اقتصاد البلد والارتقاء به.

حقوق النشر محفوظة لمركز البيدر للدراسات والتخطيط

www.baidarcenter.org

info@baidarcenter.org